أحاديث الإيمان

أحاديث الإيمان

(25)

**حديث إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب**

الحمد لله ربِّ العالمين، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله؛ صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

**أمَّا بعد:**

عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ)) رواه الحاكم

لقد وصَفَ النبي - صلى الله عليه وسلم - الإيمانَ بأنه يَخْلَقُ كما يَخْلَقُ الثوب، أي: يَبْلى ويَضْعُفُ، ويَدْخُلُهُ النَّقْصُ من جرَّاء ما قد يقع فيه المرءُ من معاصٍ وآثام، وما يلقاهُ في هذه الحياة من مُلهياتٍ وصوارفَ متنوعةٍ تصرفه عن الإيمان، وفتنٍ عظام تُذهبُ جِدَةَ الإيمان وحيويَّتَه وقوَّتَه، وتُضعِفُ جمالَه وحُسنَه وبَهاءَه؛ وهاهنا أرشد النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى ضرورة تجديد الإيمان في القلب بالتوجُّه الصَّادق إلى الله - عز وجل - فقال: «فاسألوا الله أن يجدِّد الإيمانَ في قلوبكم».

فالمقام يتطلَّبُ توجُّهًا صادقًا إلى الله - سبحانه وتعالى -، وسؤالًا ملِحًّا أن يزيد الإيمانَ ويقويه، وأن يُجدِّدَه في القلب، وأن يمكِّنَهُ فيه، والله - جل جلاله - يقول: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [إبراهيم: 27].

ولابد من جهاد النفس ومحاسبتها، وإلزامها بالحقِّ وأَطْرِها عليه أطرًا، قال الله - عز وجل -: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: 69].

ولابدَّ أيضًا من الحذرِ الشديد من الفتن، التي تُضْعِفُ الإيمان، بل كثيرٌ منها تأتي على الدِّين من أساسِهِ، وتَنقضُهُ مِن أصلِهِ.

والإيمانُ أثمنُ شيءٍ في الوجود، وأغلى كنز في هذه الدنيا، وَمَنِ افتقده افتقد الحياة الحقيقيَّة، فإنه لا حياة حقيقةً للإنسان بلا إيمان؛ ولهذا قال الله - عز وجل -: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ} [الأنفال: 24].

ولقد كان السَّلف - رحمهم الله - مِن الصحابة ومَنْ بعدهم يعنون بإيمانهم عناية كبيرة، ويهتمون به اهتمامًا بالغًا، والآثار المنقولة عنهم في تفقُّد الإيمان والعمل على تقويته وتجديده كثيرةٌ.

فهذا الخليفة الراشد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -، يقول لأصحابه: «هَلُمُّوا نَزْدَدْ إيمانًا» ، أي: نجلسُ ونذكرُ الله - تبارك وتعالى -، ونذكرُ الجنة، ونذكرُ النار، ونذكرُ وعيدَ الله ووَعْدَه، ونذكرُ رجاءَهُ وخوفه، فنذكر ذلك كلَّهُ حتى يزيدَ إيمانُنا ويَقْوَى.

وكان عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - يقول: «اجلسوا بنا نزدد إيمانًا»، وكان يقول في دعائه: «اللهم زدني إيمانًا ويقينًا وفِقهًا».

وكان معاذ بن جبل - رضي الله عنه - يقول: «اجلسُوا بنا نؤمن ساعة».

وكان عبدالله بن رواحة - رضي الله عنه - يأخذ بيد النَّفَر من أصحابه فيقول: «تعالَوا نؤمن ساعة، تعالوا فلنذكر الله فنزدد إيمانًا بطاعته؛ لعله يذكرنا بمغفرته».

ويقول أبو الدرداء - رضي الله عنه -: «مِن فِقْهِ العبدِ أن يعلم أَمُزدادٌ هو أم مُنتَقِص. ومن فِقْهِ العبد أن يعلم نزغاتِ الشيطان أنَّى تأتيه».

يريد أن من فقه العبد أن ينظرَ في أمر إيمانه أفي زيادة هو أم في نقصان. فكثير من الناس ينقص إيمانه ولا ينتبه؛ وهذا من ضعف الفقه والبصيرة.

وكان عُمير بن حبيب الخَطْمي - رضي الله عنه - يقول: «الإيمان يزيد وينقص» فقيل: وما زيادته ونقصانه؟ قال: «إذا ذكرنا الله - عز وجل - وحمِدناه وسَبَّحناه فذلك زيادته، وإذا غَفَلنا وضيَّعنا ونَسِينا فذلك نقصانهُ».

وكان علقمة بن قيس النَّخَعِيُّ - رحمه الله - وهو أحد كبار التابعين وأجلَّائهم يقول لأصحابه: «امشوا بنا نَزدد إيمانًا».

وسئل عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي - رحمه الله - عن الإيمان أيزيدُ؟ قال: «نعم، حتى يكون كالجبال»، قيل: أفينقُصُ؟ قال: «نعم، حتى لا يبقى منه شيء».

وسئل الإمامُ أحمد - رحمه الله - عن الإيمان: يزيد وينقص؟ قال: «يزيد حتى يبلغَ أعلى السَّماوات السبع، وينقصُ حتى يصيرَ إلى أسفل السَّافلِين السبع» .

والآثار والنُّقول عن الصحابة والتابعين والأئمة في هذا المعنى كثيرة، ومَنْ نظر في سير هؤلاء الصحابة والتابعين والأئمة الأجِلَّاء أدرك كيف كانوا يتفقَّدون إيمانَهم، ويسعَون في زيادته وتقويته، ويبتعدون عمَّا يُضعفه ويُنقصه، وهكذا الشَّأنُ في كلِّ من اتبعَهُم بإحسان.

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي - رحمه الله -: «فالعبد المؤمنُ الموفَّق لا يزال يسعى في أمرين:

- أحدهما: تحقيق الإيمان وفروعه والتحقُّق به علمًا وعملًا حالًا.

- والثاني: السعيُ في دفع ما يُنافيها ويُناقِضُها أو يُنقصها من الفتن الظاهرة والباطنة، ويداوي ما قصَّر من الأول، وما تجرَّأ عليه من الثاني؛ بالتوبة النصوح وتدارك الأمر قبل فواته».

وفي هذا تنبيهٌ على أهمية مراعاة الجانِبَين؛ فيُعنى العبدُ بجانب تجديد الإيمان وقوَّتهِ وزيادته، والسعي في تكميله؛ بفعل الطاعات وامتثال أمر الله - جل جلاله -. ويسعى في دفع الأمور التي تُضعِفُ الإيمان وتُنقِصُهُ.

وفي تشبيه النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان بأنه يخلق كما يخلق الثوب تنبيه إلى أهمية رعاية الإيمان وصيانته كرعاية الثوب بل أشد، فإذا كان الثوب الذي يحرص كل على جِدَّته ونظافته يخلَق ويصيبه ما يصيبه من الأوساخ فيحتاج إلى غسلٍ وتعاهد وعناية فإن مقام الإيمان أعظم وشأن الدين أكبر وأمره أجلّ ، ومن كان يُعنى بثوبه فلا حرج عليه لكن إيمانه أولى بالعناية وأجدر بالاهتمام .

وفي قوله ((لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ)) تنبيه إلى أن القلب هو الركيزة والأساس الذي يُبنى عليه العمل الظاهر ، وإيمان المرء في جوفه يخلَق ، فقد يكون في بعض الأزمنة قويًا ثم يصيبه ما يصيبه فيخلَق ويضعف ولا سيما إذا توالت عليه الصوارف والفتن والصواد والملهيات .

فلا بد من تفقد الإيمان والعمل على تقويته في القلب، ولابد من فزع إلى الله ولجوء صادق إليه ، لأن الإيمان بيد الله ، وهبةٌ منه سبحانه يتفضل به على من يشاء قال تعالى{وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ }[النور:21] ، وقال تعالى{وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا}[النساء:83] وقال عز وجل: { وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الحجرات:7-8] ، وقد صح في الدعاء المأثور عن نبينا عليه الصلاة والسلام ((اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ)) ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام ((فَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ)).

ثم مع الدعاء يجاهد نفسه فيجاهد نفسه على تكميل ما يكون به حفظ إيمانه وثبات دينه ، كما قال عليه الصلاة والسلام ((احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ)).

وهذه التجديد للإيمان يكون وظيفة يومية يصاحب المسلم في كل يوم من أيامه ، فيعمل على التجديد لإيمانه من خلال وسائل ومجالات كثيرة هيأها الله سبحانه وتعالى له جاء تبيانها في كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه .

ومن أهم ما يكون في هذا الباب أن يكون يوميًا مرتبط بالعلم الشرعي ؛ لأن العلم الشرعي يعدُّ صِمام أمان لحفظ الإيمان وتقويته ، ولهذا قال نبينا عليه الصلاة والسلام: ((مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ)) ، وقال عليه الصلاة والسلام: ((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ)) ، والعلم نور لصاحبه وضياء له في طريقه وفي سيره ، فبالعلم يميز المرء بين الهدى والضلال ، والحق والباطل ، والنور والظلام ، وبدون العلم تلتبس عليه الأمور وتختلط عليه السبل .

ولهذا كان نبينا عليه الصلاة والسلام يقول كل يوم إذا أصبح بعد أن يصلي الصبح: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا، وَرِزْقًا طَيِّبًا، وَعَمَلًا مُتَقَبَّلًا» ، ففي كل يوم يسأل الله العلم النافع لأنه مطلوب من المرء في كل يوم من أيامه .

وأعظم ما يكون في العلم الشرعي العناية بالقرآن الكريم ؛ فإن أمره عجب في تقوية الإيمان وزيادة اليقين وتمتينه في القلب ، قال الله سبحانه وتعالى: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ }[التوبة:124] . قال عز وجل: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}[الأنفال:2-4] .

وكذا العناية بالسنة النبوية ، وأيضا سير الصحابة الكرام ومن اتبعهم بإحسان فهذا باب عظيم من أبواب تقوية الإيمان، وأيضا كل ما يعين على الصلة بالله والتعظيم لله والإجلال لله ويأتي في مقدمة ذلك حسن المعرفة بالله سبحانه وتعالى وبأسمائه وصفاته وأفعاله والتأمل في مخلوقاته الدالة على عظمته وجلاله ؛ فإن هذا يقوي الإيمان في القلب تقوية عظيمة ومن كان بالله أعرف كان منه أخوف ولعبادته أطلب وعن معصيته تبارك وتعالى أبعد.

مع العناية بحفظ الإيمان من الأمور التي تُنقصه وتتسبب في ضعفه ووهائه وربما أيضا ذهابه . والمسلم كما أنه مطلوب منه أن يعرف أسباب زيادة الإيمان وقوته ليعمل بها ويحافظ عليها فإنه مطلوب منه في الوقت نفسه أن يعرف أسباب ضعف الإيمان ليجتنبها وليكون على حذر منها .

نسأل الله أن يجدد الإيمان في قلوبنا وأن يزيننا بزينة الإيمان وأن يجعلنا هداة مهتدين، وصلَّى الله وسلَّم على عبده ورسوله نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.